رد على نقد

حول «مذكرات واعظ أسير»

للأستاذ أحمد الشرباصي

شاء الكاتب الصديق الشيخ كامل السيد شاهين أن يملأ أكثر من ثلاث صفحات في «الرسالة» الغراء بالحديث عن كتابي الأخير: «مذكرات واعظ أسير». ومن حق القراء على الرسالة أن يفسح صدرها لكلمة النقد كما يفسح لكلمة التقدير؛ ولكن الواجب المسلم هو أن يكون الحديث ذا بال، وأن يكون النقد ناهضا على أساس متين من الحق والصدق، حتى يسلم من الهوى والظنة، ويرتفع عن السباب والمهاترة

ولقد بسط الشيخ شاهين رداء الحديث في صدر كلامه مادحا مطريا، ثم جمع أطرافه على وخزات من النقد يحسبها في الموضوع، ويراها مصطنعة ليبدو الكاتب وكأنه يعادل بين التأييد والتنفيد، حتى يقال له: ما أبرعك مادحا وقادحا؛ وهيهات!..

وعلى الرغم من مقدمة الكاتب العريضة المشعرة باستفادته من الكتاب وتأثره به، وعلى الرغم من أنه اعترف بأن «المآخذ» التي سيذكرها «لا تشين الكتاب» ولا تتناول موضوعه وفصوله، ولا تورث صورا إلا «كلفا من بعض الجوانب» فقد شاء له حرصه على الإفاضة في القول أن يملأ صفحتين بالدوران حول هذه الملاحظات التي لا تشين ولا تتصل بالموضوع

ويؤسفني أن أقرر أن أولى ملاحظاته ينقصها الصدق، فقد ادعى علي أنني أكثرت في كتابي من ذكر «أني خطيب، وأن لي جهودا ملحوظة في نشر الدعوة، وأن لي أتباعا وأنصارا»..

وأين ذلك في الكتاب أيها الصديق؟ لعل حديثا جرى عن طريقة المؤلف في خطابته، وعن حرصه على وصل المنبر بالحياة الاجتماعية، وهذا لا ضير من تقريره، لأنه رسم طريقة وتحديد توجيه؛ ولكل امرئ إذا كتب «مذكرات» تحدث عن مثل هذا وأضعافه، ولا يعاب ذلك ولا يذم... ولعل حديثا جرى على قلم صاحب «مذكرات واعظ أسير» من رواد مسجد النيرة — على أيامه أطيب التحيات — وهؤلاء الرواد كانوا من غير شك يؤلفون مدرسة إسلامية متواضعة تحدث الناس عنها هنا وهناك... أما وصف المؤلف نفسه بأنه خطيب وبأنه عظيم الجهود وبأن له أتباعا وأنصارا، فحديث مصنوع أو موضوع!

وآلم السيد شاهين ما جاء في خاتمة الكتاب من تحايا الشعراء والأدباء المؤلف بمناسبة الإفراج عنه والفرحة بعودته إلى حياة الحرية والانطلاق، وشاء أن يعبر عن ألمه بهذا الحكم الصارم — أو الوارم —: «فسائر هذه التقريظات غاية في الفثاثة والتفاهة» ومن السهل على كل إنسان أن يصدر مثل هذه الأحكام العامة التي ينقصها الرشد والتبصر. ولعل الكاتب لم ينس أن العرب اختصروا الطريق في حكمهم على القرآن المجيد فقالوا إنه «أساطير الأولين»!... ومن المؤسف مرة أخرى أن أذكر الشيخ شاهين بأن هذه التحايا لم تكن تقريظات. ولم يستكتبها أستاذ من طلبته كما زعم متجنيا، بل هي صور عواطف ومشاعر لإخوة كرام سبقوا بها قبل ظهور الكتاب بشهور ونشر أغلبها، وأصحابها لهم مكانتهم الأدبية وماضيهم الشعري، ولذلك عنوت بعنوان «تحية وذكرى»، ومن الطريف — وليس مما يعاب كما توهمت — أن تسجل العواطف المتبادلة بين التلاميذ الأحباء والأساتذة الأوفياء — وبعد النظر عن غير هؤلاء فهم كالهباء — ... وهل يعد غاية في الفثاثة والتفاهة قول أحد المحبين:

عفواً إذا زل مما قلته قلمي ... برغم أن جنا زلاته الخطر
أوخذت ظلما وهذي رحمة سبقت ... من أن تؤاخذ عدلا أيها القمر

وهل يعد غاية في التفاهة والفثاثة قول الثاني:

لبيك لو قبل الفادي فديته ... أو لم يزعه ضميره التقابي؟
إني لأدخر الثنـــاء لعالم ... لاق الصعاب بعزمة الوثاب
متدرعا بالصبر، لا متراجعا ... في الحق، أو مستهدفا لعتاب

لقد أبعدت أيها الصديق، وحملت هذه التحايا مالا تطيق!

وكبرى الكبائر عندي أن يعتبر الشيخ شاهين دفاعي عن الأزهر الشريف المعمور «هفوة»! كبرت الكلمة منك أيها الصديق... الأزهر الذي رضعت لبانه وتعممت بخيرانه وسعدت بكنوزه وعلوت باسمه ينال منك هذا الجزاء؟.. ثم أنت

لا تقصد فى النقد ، ولا تكتفى بالتوجيه ، ولا تقنع باللوم ، بل تجور وتجور . فتنال جبهة الأزهر الشماء بما تشاء ، ثم تسرف فتقول وبئس ما تقول : « ألا إنه قليل للأزهر أن يلام ، وقليل لرجاله أن يتهموا بالضعف والتدليس وحب الدنيا ، وإذا كانت فعلتهم فى النكر ما هى ، فإنه لأنكر منها أن يدافع عنها ويوقف إلى جانبها » !!

أهذا كلام يقال ، ومن أزهرى ، ومن رجل يعمل تحت اسم الأزهر الشريف حتى اليوم ؟ ... دون ذلك يا صاحبى وتفترق طريقانا ... ثم إن هناك فرقا بين « الأزهر » و « الأزهريين » يا صاحبى ، فالأزهر معنى وفكرة ورسالة وتاريخ له جلاله وهيبته ، والأزهريون قوم يجوز عليهم الخطأ ، إذ ليسوا بمعصومين ، وإذا كان فيهم من فرط ، ففيهم أعلام جاهدوا ولا زالوا يجاهدون ، ومن الكفران أو الطغيان تعميم الحكم على الجميع بهذه الصورة القاسية ، وكدت أقول « الغبية » ومعذرة إليك أيها الصديق ، فقد فتحت الباب !

ومن الذى قال لك إنى « أبدت » الأزهريين جميعا وبلا استثناء وعلى طول الخط ؟ .. ألم أنتقد شيخ الأزهر الأسبق على موقفه من اعتقالى ؟ (ص ١١) و (ص ٢٥) .. ألم أسرد رأى شاب ثائر فى علماء الأزهر وموقفهم من المحنة بعبارته الشديدة المكشوفة (ص ٢٨) ؟ ... وحتى فى دفاعى عن الأزهر والأزهريين قد أشرت إلى بعض العيوب الموجودة فى البيئة الأزهرية وذكرت أسباب ذلك ودواعيه ، ولما تطاول القول فى ذم الأزهر بلا إبقاء قلت (ص ٩٨) : « إن هذا لا يليق ، وليس من مصلحة أحد ، وليس هذا أوان الطعن ، والأزهر يجب أن يصان عن التحطيم والتهديم ، وحبذا لو تركنا أخطاء الأزهريين لنقدة الأزهريين ، ويجب أن نتذكر أننا لو جردنا الأزهر من كل حسناته لما فقد المعنى الإسلامى العظيم الذى يجعله حصنا يخيف المارقين »

ثم تأتى أعجوبة الأعاجيب ، وهى أن يعتبر الشيخ شاهين تفسيرى رثاء المتنبى لشبيب العقيلى بأنه « هفوة أدبية » ولست أدرى أينا الذى هنا ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ؛ والحكم هنا هم القراء ، فليطالعوا كلامى فى كتابى وكلامك فى تهجمك . وليروا رأيهم .. إن تفسيرى لرثاء المتنبى على الوجه الذى أوردته ليس « تأويل نحاة » ولكنه ذوق أديب وفن بصير وحديث تاريخ ، فعد إلى دارسى المتنبى إن شئت لتفهم ، واقرأ ما كتبه الجارم فى « الشاعر الطموح » عن هذا الموقف بالذات لتعرف معنى الرثاء هنا على وجهه الذى أريد به

لقد فر المتنبى إلى مصر ، والفار يركب الصعب من الأمور ، وقد حسب المتنبى كافورا قبل أن يراه أشياء فلما رآه لم يجده شيئا ، ولكنه أصبح فى حماه وتحت سلطانه ، فليمدح عبدا ما ليس بالحسن ، وليمدح العبد الخصى الذى لا تسلب ذات عبوديته ، ولكن يعاب عليه وهو عبد بين أحرار ، وليسخر به كما يسخر الناس قائلين « يا مولانا الأستاذ » .. يا سيدنا المدبر ، يا ولى نعمتنا ، ولعنة الله على زمان يتولى السيادة فيه العبيد .. وشاهين يتخذ من مدح المتنبى لكافور شواهد على عظمة كافور ، فما رأيه فى أهاجيه التى خسف بها كافوراً إلى أسفل سافلين ؟.. ما رأيه فى هذه الأهاجى التى جعلت العبد الخصى أضحوكة فى كل فم ؟ .. وهل بعد قول المتنبى هازئا : « لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب » ؟ .. وماذا يقول الإنسان عن « الأضحوكة » من الناس أو الحيوان غير هذا يا شيخ ؟.. وهلا أدركت مبلغ سخرية المتنبى فى قوله لكافور :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

نعم ولو كان « القمران » من أعداء كافور لوصفا بالذم ؟ وعمن ؟ ... من كل لسان ... يا سلام يا سلام ! .. أبعد هذه سخرية ؟

وسقط الشيخ سقطته حين توهم أن المتنبى أطال المديح فى شبيب بعد قتله ليرى الناس أن كافورا كان ينازل خصما قويا وأنه كان أقوى به فتغلب عليه وقهره .. إنما يصح هذا فى الأذهان يا فلان لو كان كافور نازل شبيبا فى معركة ، أو صاوله مصاولة الأنداد ، ولكن لعلك لا تعرف أن كافورا قضى عليه بأسلوب الخسة واللؤم ، فدس عليه من سمه ، وتلك خطة الجبناء ، وذلك حيث يقول المتنبى :

وقد قتل الأعداء حتى قتلته بأضعف قرن فى أذل مكان

وأرجو أن تتمهل حتى تدرك مبلغ التعريض بكافور فى قول المتنبى عن شبيب :